

مقاربة حول القيادة السياسية والفعل الجماعي بين فرحات عباس وأحمد فرنسيس 1943-1956

د.خالد بوهند

جامعة سيدي بلعباس

نحاول في هذا البحث أن ندرس مسار الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1943 و1956، ولما كان تركيزنا فيه على القيادة السياسية، أو الطبقة السياسية، أو النخبة المثقفة بالفرنسية تحديداً، فقد وقع اختيارنا على شخصيتين بارزتين ممثلة في فرحات عباس وأحمد فرنسيس. إن مقاربتنا لهذا الموضوع التاريخي، والسياسي، والاجتماعي، ستدفع بنا لكي نجيب على الإشكاليات التالية: ما سر اختيارنا لهاتين الشخصيتين بالذات؟ كيف ولماذا كانت الأفكار السياسية لهاتين الشخصيتين متقاطعة دوماً؟ هل الأمر متعلق بالجانب الاجتماعي-العائلي؟ أو بالأحرى ما هي الأصول الاجتماعية لكل واحد منهما؟ ما هي مشاربهما؟ وهل كان لذلك تأثير في مسارهما السياسي؟ وهل القائدين يصلحان لكي يكونان نموذجين يحتدا بهما في العمل الجماعي المشترك؟.

بالنسبة للأصول والمكانة الاجتماعية لكلا القائدين، ستبين التعريفات المقتضبة عنهما، بأنهما يشتركان في بعض الأمور، وقد يختلفان في أمور أخرى كذلك. ففرحات عباس ينتسب لعائلة ابن داوي أو دواوة، التي تنحدر من قبيلة بني عمران التي استقرت بنواحي جيجل شرق الجزائر، وقد استمد اسم العائلة فيما بعد من جد الجد المسمى عباس⁽¹⁾. كان جد فرحات عباس إقطاعي، ولكن طرد من أرضه بعد ثورة المقراني سنة 1871، ليصبح مجرد فلاح فقير، واستطاع والده سعيد بن أحمد أن يعيد للعائلة مكانتها الاجتماعية، بعد أن استرجع بعضها من أملاكها، الأمر الذي أهله لكي تعينه إدارة الاحتلال قايد (Caïd)، ثم رفته إلى رتبة باشاغا (Bachagha) مع منحه وسام لفياف الشرف⁽²⁾.

أما أحمد فرنسيس فينتسب إلى عائلة منحدرة من مدينة مليانة العريقة، انتقل والده محمد للاستقرار في مدينة غليزان غرب الجزائر⁽³⁾. أما سر لقب العائلة فرنسيس، فقد اختلفت حوله الروايات، ولعل أهمها تلك التي تذكر بأن اللقب

مستمد من أحد أجداد العائلة الذي امتن حرفة صراف أو تحويل العملة الجزائرية بالعملية الفرنسية في بداية الاحتلال، ولهذا أطلق عليه لقب "صراف دراهم فرنسيس"، وعندما تم الشروع في العمل بالحالة المدنية، تم تسجيل شجرة نسب العائلة بهذا الاسم سنة 1886⁽⁴⁾، لا ندري ما إذا كان أحد أفراد العائلة الموسعة قد اكتسب أملاكا من قبل، على غرار عائلة فرحات عباس، ولكن سيرث أحمد فرنسيس ثروة من والده محمد، والذي جمعها بفضل استثماره في الفلاحة بغليزان بالشراكة مع فضيل مولاي علي بن يمينة⁽⁵⁾.

بالرغم من أن فرحات عباس يكبر أحمد فرنسيس بنحو عشر سنوات، إذ أن الأول من مواليد 24 أكتوبر 1899 بدوار شحنة القريب من الطاهير البلدة الواقعة بين بجاية وسكيكدة⁽⁶⁾، والثاني من مواليد 12 نوفمبر 1910 بمدينة غليزان⁽⁷⁾، فإن كلاهما ينحدران من الطبقة الاجتماعية الوسطى، أي البورجوازية الريفية بالنسبة لعائلة عباس، والبورجوازية الحضرية بالنسبة لعائلة فرنسيس، وهو الأمر الذي سهل لكل منهما بانتزاع شهادة عليا، إذ تحصل فرحات عباس على شهادة في الصيدلة، وتحصل أحمد فرنسيس بدوره على شهادة في الطب. ومع ذلك علينا أن نطرح السؤال التالي: لماذا طغى الجانب السياسي في حياة الرجلين؟

قبل أن نجيب على هذا السؤال الجوهرى، علينا التطرق لمعطيات أخرى قد تساعدنا في فهم سر الصداقة الحميمة بين الرجلين، أو ذلك التناغم الذي ميز حياتهما النضالية على الأقل خلال الفترة المحددة لهذا البحث (1943-1956)، فمن الناحية الاجتماعية وجدنا أن فرحات عباس ترعرع تحت سقف جمع الجدة صاحبة الذكريات والتقاليد الإسلامية، والوالدين سعيد الأب الصارم ومعزة (كذا) الأم الحنون، والإخوة والأخوات وعددهم جميعا اثني عشرة⁽⁸⁾، في الطرف الآخر كانت عائلتي محمد فرنسيس (الأب) وفضيل مولاي تعيشان معا في عمارة واحدة، وأن فضيل مولاي مريد زاوية بوعبدلي (كذا) هو الذي أشرف على تربية أحمد طبيب المستقبل بمعية أخيه الأكبر عبد القادر محامي المستقبل⁽⁹⁾.

هذا الأمر من المؤكد أنه أثر في شخصية فرحات وأحمد من الناحية الاجتماعية والنفسية، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بالتعاضد والتآزر العائلي، ومسألة الدين الإسلامي والهوية. يضاف إلى التربية على الطريقة الجزائرية الخالصة لكلا الرجلين،

الثقافة الفرنسية، ألم يكن الرجلان نتاج المدرسة الفرنسية بامتياز؟ . فمن الناحية الإيديولوجية سنجد أن الأفكار السياسية التي ناضل من أجلها الرجلان، ولا سيما خلال الفترة المدروسة (1943-1956)، تتمحور حول الثورة بالقانون، ونبذ العنف كوسيلة لتحقيق الاستقلال، وعلى جمهورية جزائرية مستقلة مرتبطة فيدراليا مع جمهورية فرنسية غير استعمارية ولا استبدادية، وعلى الاستقلال الذاتي للجزائر، أو التحرير والوحدة مع فرنسا⁽¹⁰⁾.

استقر فرحات عباس بسطيف بعد تخرجه من جامعة الجزائر، وهناك افتتح صيدليته سنة 1933⁽¹¹⁾، وهي نفس المدينة التي جذبت إليها أحمد فرنسيس، هذا الأخير استقر بها سنة 1940 حيث مارس مهمته في بداية الأمر عند عيادة علي معيزة صديق فرحات عباس، قبل أن يفتتح عيادته الخاصة⁽¹²⁾. إن فارق السن بين فرحات عباس وأحمد فرنسيس، ثقافتهم المزدوجة، مهنتهم المتقاربة، واحد صيدلي والآخر طبيب، طموحاتهم السياسية، كلها عوامل ساهمت في تطور علاقة متميزة بين الرجلين، من القائد السياسي وذراعه الأيمن ما بين 1943-1946، إلى القائد السياسي ونائبه ما بين 1946-1956.

ومع ذلك علينا أن نتوقف قليلا عند عبارة "القائد السياسي وذراعه الأيمن". فعند نزول الحلفاء بالجزائر في 8 نوفمبر 1942، كانت الوجوه البارزة في الحركة الوطنية قد اختفت من الساحة الجزائرية، فابن باديس كان قد توفي سنة 1940، ونائبه البشير الإبراهيمي كان منفيا في بلدة آفلو، ومصالي الحاج كان بدوره منفيا في قصر الشلالة، وكان فرحات عباس رجل هذه المرحلة، إذ لم يعد كمال بن سراج الذي يكتب في الصحافة، ويدعو إلى المساواة، والاندماج في الإطار الإسلامي، لقد تغير الرجل بعد تجربة نضالية دامت حوالي عشرين

بدأ فرحات عباس المرحلة الجديدة بتوجيه رسالة إلى الحاكم العام في 16 ديسمبر 1940، طالبه فيها بأن يدرج ضمن اللجنة المالية للجزائر، وقد استقبل من طرف الأميرال الفرنسي أبريال (A. Abrial) الذي شتمه وطرده، ورغم ذلك حاول عباس أن يشرح للمسؤولين الفرنسيين ما يمكن أن تكون عليه جزائر الغد، ففي مذكرة له مؤرخة في 10 أبريل 1941، خاطب عباس فرنسا وتحديدا المارشال بيتان (M. Pétain)، بواسطة ماكس بونافوس (Max Bonnafous) والي قسنطينة إذ

ذاك، بأنه إن أرادت فرنسا تقارب الأجناس، عليها إحداث ثورة زراعية وسياسية في البلاد شبيهة بالتي حققها مصطفى كمال، كان هذا بمثابة النداء الأخير للمساواة في الحقوق في إطار الأمة الفرنسية، قبل أن يكتشف أن فكرة الأمة الجزائرية بدأت تتسرب في أوساط الجماهير، وبدأ المنتخبون المسلمون ينفصلون الواحد تلو الآخر عن الإدارة، وعليه أن يتبنى الفكرة الوطنية، التي أضحت الطريق الوحيد لتحقيق الأهداف⁽¹³⁾.

وفي 22 ديسمبر 1942، وجه فرحات عباس رسالة-عن الممثلين الجزائريين-إلى السلطات الفرنسية، طالب فيها بعقد مؤتمر يتولد عنه دستور سياسي جديد للبلاد، فكان الجواب بالرفض. وهو ما دفع بفرحات عباس وبعض الوجوه السياسية في البلاد إلى تحرير بيان الشعب الجزائري في 10 فبراير 1943⁽¹⁴⁾. لقد جسدت الفعل الجماعي أسماء من طراز محمد الصالح بن جلول (طبيب-مستشار عام-مندوب مالي)، أحمد بومنجل (محامي)، وعبد النور تامزالي (طبيب-مندوب مالي)، وأحمد غرسي (مندوب مالي)، وعبد القادر قاضي (مستشار عام)، ومحمد الأمين دباغين (طبيب-PPA)، وحسين عسلة (PPA)، والشيخ العربي التبسي ومحمد خير الدين وتوفيق المدني (Ulémas)، وشريف سعدان (طبيب-مستشار عام)، ومحمد الهادي جمام (طالب)⁽¹⁵⁾. وقد ذكر اسم أحمد فرنسيس⁽¹⁶⁾، وإذا صح الأمر، فيمكن اعتبار ذلك منطلقا لبداية نشاطه السياسي.

مهما يكن، فإن أحمد فرنسيس الذراع الأيمن لفرحات عباس، وصديقه الحميم، كما نعتته بعض الجهات الفرنسية⁽¹⁷⁾، سيلعب دور الوسيط رفقة مناضلين آخرين من أجل إطلاق سراح فرحات عباس الذي وضع تحت الإقامة الجبرية في جنوب عمالة وهران رفقة عبد القادر سايج (سبتمبر-ديسمبر 1943). وعندما قام فرحات عباس-بعد العفو عنه-بتشكيل أحباب البيان والحرية (AML) بسطيف شهر مارس 1944، أصبح أحمد فرنسيس المنشط الرئيس للجنة المؤقتة، إنه لم يتوقف منذ 1945 عن الدعاية لصالح البيان⁽¹⁸⁾. وعندما انتقل مقر الحزب إلى مدينة الجزائر شهر يناير 1945، أصبح الرجلان ينشطان جنبا إلى جنب في العاصمة، وفي بداية شهر فبراير، عاد أحمد فرنسيس إلى مسقط رأسه غليزان لإلقاء النظرة الأخيرة على والده محمد الذي كان على فراش الموت،

فاستغل المناسبة لتشكيل الفرع المحلي لأحباب البيان والحرية بغليزان يوم الأحد 4 فبراير 1945، وبعد وفاة والده عاد إلى الجزائر لمواصلة نشاطه، فأنشأ رفقة فرحات عباس جريدة المساواة (Égalité)، التي أصبحت لسان حال الحزب. لكن بعد أحداث ماي 1945، سجن الرجلان، وفي سجن القنادة ببشار علم أحمد فرنسيس بخبر وفاة والدته خيرية⁽¹⁹⁾، كما علم فرحات عباس بدوره بوفاة والده سعيد⁽²⁰⁾.

أطلق سراح الرجلان في مارس 1946، فعاد أحمد فرنسيس إلى مسقط رأسه غليزان، وهناك افتتح له عيادة طبية لم يسخر لها كل وقته، لأن باله كان مشغولا بالسياسة، فرجع قافلا إلى الجزائر للقاء صديقه الحميم فرحات عباس، حيث وقفا الرجلان رفقة مناضلين آخرين على إنشاء حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري (UDMA) شهر أبريل 1946، وجريدة ناطقة باسمه هي الجمهورية الجزائرية (La République Algérienne)⁽²¹⁾.

دخل الحزب معتركه السياسي بمشاركته في انتخابات المجلس التأسيسي الثاني-باريس- في 2 جوان 1946، وافتك بذلك إحدى عشرة مقعدا من مجموع ثلاثة عشرة مقعدا. ففي عمالة قسنطينة فازت كل اللائحة: فرحات عباس (صيدلي بسطيف)، الهادي مصطفى (محامي بسطيف)، بن خليل (طبيب بباتنة)، ساطور (محامي بالجزائر)، باي العقون (ملاك بعنابة)، الحاج سعيد (محامي بقسنطينة). نفس الشيء بعمالة وهران، حيث أسفرت نتائج الفرز عن فوز محداد (أستاذ ثانوي بوهران)، وأحمد فرنسيس (طبيب بغليزان)، وقادة بوتارن (أستاذ بتيارت). وفي عمالة الجزائر، انتزع الحزب مقعدين فقط، فاز بهما كل من سعدان (طبيب ببسكرة)، وبن قداش (موظف بميشلي)⁽²²⁾.

إن ما يمكن استخلاصه عن الحياة السياسية للرجلين ما بين 1946-1956، هو ذلك النشاط الدءوب، وعلاقات التكامل التي ميزت الرجلان من جهة، وبقية المناضلين الآخرين في الحزب من جهة ثانية، وهو العامل الحاسم الذي جعل معظم مؤتمرات الحزب تجري بانتظام وفي موعدها المحدد، الذي كان في غالب الأحيان يتم انعقاده في شهر سبتمبر من كل سنة في إطار المصادقة على البرنامج السنوي، يضاف إلى ذلك الإشراف على الفروع المحلية للحزب المنتشرة عبر القطر

الجزائري، وبث أفكاره عبر الخطابات السياسية، أو الاتصال بنواب مجلس الاتحاد الفرنسي بباريس لشرح مبادئ واقتراحات الحزب-قبل أن يكون له ممثلين طبعاً- حول الدستور المستقبلي للجزائر، ولقد كللت جهود الرجلان بمنح قاعدة الحزب كل الثقة فيهما، وكذا انتخابهما في كل مناسبة أمينا عما للحزب ونائبه .

بعد الإفراج عن دستور الجزائر في 20 سبتمبر 1947، جرت انتخابات المجلس الجزائري بهيئتين انتخابيتين، وفي دورتين 4-11 أبريل 1948، حيث دخل حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري حملته الانتخابية وقدم مرشحيه عن كل الدوائر الانتخابية في الجزائر، ورغم الترهيب المسلط من قبل القوات الاستعمارية، رغم التزوير الذي ساد العملية الانتخابية، إلا أن الحزب تحصل على ثمانية مقاعد، من الفائزين في هذا الاستحقاق (بتحفظ): عبد السلام بن خليل، قادة بوتارن، عبد الباقي بن قارة، علي قاضي، يوسف بن عبيد، فرحات عباس، وأحمد فرنسيس بصفته ممثلاً عن الدائرة الانتخابية الرابعة (عمي موسى) في الهيئة الانتخابية الثانية بعمالة وهران.

لقد كانت سياسة التزوير التي رسخها الحاكم العام ادموند نايجلن (Edmond Naegelen) منذ انتخابات 1948، نموذج ستحذو حذوه الإدارة الاستعمارية لتزوير كل الانتخابات القادمة، وهذا ما خلصنا إليه عندما تقدم أحمد فرنسيس للانتخابات العامة لعمالة وهران التي تم إجراؤها في 20 مارس 1949، وذلك عن الدائرة الانتخابية 19 (غليزان-مينة)، لكنه انهزم فيها بسبب دعم الإدارة الاستعمارية لمنافسه محمد بوخلوة(صيدلي-مستشار عام سابق). بعدها تقدم أحمد فرنسيس لانتخابات المجلس الجزائري التي تم تنظيمها في 31 يناير 1954، حيث مثل حزبه في الهيئة الانتخابية الثانية عن الدائرة الانتخابية الرابعة (عمي موسى) بعمالة وهران، واستطاع أن ينتزع فوزه في الدورة الثانية التي جرت في 4 فبراير 1954، فعينه الحزب رئيساً للكتلة البرلمانية⁽²³⁾.

على الرغم من الجهود التي بذلها ممثلو الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري عبر بياناتهم المشتركة، ومدخلاتهم النارية في المجالس المنتخبة، قصد تغيير الأوضاع، إلا أن النتائج كانت مخيبة للأمال المرجوة، وفي هذا الصدد يذكر فرحات عباس: « من 1948 إلى 1954 حاولنا طرح المشكل الجزائري أمام مجلس الدولة، وأمام

الحكومة، وأمام رئيس الجمهورية، وأمام البرلمان. لقد توسلنا كل الدولة الفرنسية لكي تنظر بعين العطف إلى هذا الشعب الذي عمل كل ما في وسعه لتحرير فرنسا»⁽²⁴⁾. إن الممارسات الاستعمارية الحاكمة في الجزائر من جهة، وسياسة الاستعلاء في فرنسا من جهة ثانية، جعلت فرحات عباس وأحمد فرنسيس ومن كان يسير في خطهما السياسي، يدركون بأنهم أصبحوا مجرد واجهة لديمقراطية مزيفة، هذا المأزق السياسي هو الذي أجبر فرحات عباس ومعه أحمد فرنسيس على تغيير أسلوبهما في العمل من الثورة بالقانون إلى الثورة بالعنف المسلح، وهو ما حصل عندما اعتنق الرجلان الإيديولوجية التي تبنتها جبهة التحرير الوطني، لينضموا إلى مكتبها بالقاهرة في 22 أبريل 1956، وذلك بعد اجتماع سويسرا الذي ضم أيضا المحامي أحمد بومنجل.

إن التربية الأسرية، والتعليم، أو البيئة الجزائرية في ظل الاستعمار بشكل عام، هي من ضمن العوامل التي خلقت هذا النوع من ردة الفعل لدى القائدين السياسيين فرحات عباس وأحمد فرنسيس، ولدى بقية المناضلين أيضا، سواء في حركة أحباب البيان، أو في الاتحاد الديمقراطي للبيان، والتي اختلفت في جوهرها عن ردة الفعل لدى بقية المناضلين في الحركة الوطنية الجزائرية. وعلى الرغم من أنها كانت ردة فعل جماعية ونزيمية، إلا أن النتائج المحصل علمها لم تكن بالضرورة في مستوى تطلعات القاعدة النضالية، ولا في مستوى تطلعات الجماهير المساندة، بسبب سياسة الإقصاء والتهميش، وسياسة الترهيب، والتزوير الانتخابي الممنهج من قبل الإدارة الاستعمارية، ومع ذلك وكأي تجربة سياسية سابقة، لا بد أن تدرس بعناية، لكي نتخذ من إيجابياتها ونقائصها نموذجا للتأسيس الديمقراطي الحقيقي في بلادنا.

الهوامش

- (1)-Ferhat Abbas, Demain se lèvera le jour. Alger-Livres Éditions, Alger, 2010, p.p.25-27.
- (2)-Benjamin Stora , Zakya Daoud, Ferhat Abbas une autre Algérie. Casbah Éditions , Alger, 1995, p.p.19-21.
- (3)-ANOM, Oran 5116, dossier: Francis Ahmed, notice de renseignement, Oran, le 9 décembre 1943.
- (4)-Abdellah Righi, Ahmed Francis 1910-1968. Éditions ANEP, Alger, 2007, p.18.
- (5)-ANOM, , Oran 5116, dossier: Francis Ahmed, op.cit

- (6)-Achour Cheurfi, La classe politique algérienne de 1900 à nos jours. Casbah Éditions , Alger, 2001, p.16.
- (7)-Abdellah Righi, op.cit, p.35.
- (8)- Benjamin Stora , Zakya Daoud, op.cit, p.p.19-22.
- (9)-ANOM, Oran 5116, dossier: Francis Ahmed, op.cit
- (10)-خالد بوهند، النخب الجزائرية دراسة تاريخية واجتماعية 1892-1942. دار القدس العربي، وهران، 2015، ص.ص.279-280.
- (11)- Benjamin Stora , Zakya Daoud, op.cit, p.51.
- (12)- Abdellah Righi, op.cit, p.p.44-51.
- (13)-خالد بوهند، المرجع السابق، ص.ص.279-278.
- (14)-Jean Lacouture, Cinq hommes et la France. Éditions Du Seuil , Paris, 1961, p.284.
- (15)-Ferhat Abbas, La nuit coloniale. Éditions ANEP, Alger, 2005, p.107.
- (16)- Abdellah Righi, op.cit, p.52.
- (17)-ANOM, Oran 5116, dossier: Francis Ahmed, notices de renseignements ,et personnalités diverses.
- (18)-Ibid, SLNA, notice individuelle, Oran, le 18 janvier 1952
- (19)- Abdellah Righi, op.cit, p.p.53-55.
- (20)- Benjamin Stora , Zakya Daoud, op.cit, p.163.
- (21)-Abdellah Righi, op.cit, p.p.55-59.
- (22)- Ferhat Abbas, La nuit coloniale, op.cit, p.p.123-124.
- (23)- Abdellah Righi, op.cit, p.p.72-74.
- (24)-Ferhat Abbas, La nuit coloniale, op.cit, p.141